سبيل الرشاد

لقد حدَّد القرآن الكريم طريق الرشاد أما أعين الناس، فعرفوا الأشياء على حقيقتها دون خداع.

كان الناس - ولا زالوا عند انحرافهم - يرون ربحهم وخسارتهم فيما يصل إلى أيديهم من متاع، ويقع بينهم التنافس المسعور على تحقيق لذة أو إحراز منفعة.

فجاء القرآن الكريم شفاءً لما في الصدور، وحدد قيم الأشياء وبيَّن الربح الحقيقي ومتى يكون الخسران.

بَيَّنَ أن الربح والخسارة ليست في العرض الزائل ولا المتاع الفاني، فما أسوع ما تنقضي الزينة وينقضي المتاع.

ولعل هذا ما أشارت إليه أسماءُ بنتُ أبي بكر، ذاتُ النطاقين عندما قالت لمن أمر بقتل ابنها "عبد الله بن الزبير" قالت له في ثقة وصبر: ((والله ما أراك إلا قد أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك)).

فمن الذي ربح ؟ ومن الذي خسر ؟

والقرآن الكريم يُحدد الأمر تحديداً قاطعاً أمام أعين الناس، لكي يعرفوا أين يكون الربح ومتى تقع الخسارة فيقول الحق - جَلَّ وَعَلاَ -: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (١)

في أمر المنافقين الذين تأسرهم دُنياهم فيخادعون من أجلها ويقولون آمنا بالله واليوم الآخر، وما هم بمؤمنين، يقول الحق - جَلَّ وَعَلاَ -: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ

(١) الزمر : من الآية ١٥.

ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

والقرآن الكريم وهو يحدد هذه الأمراض ويقدم شفاءها يدل - بعد ذلك - على طريق السلامة والعافية، ويدعو إليه. فبعد حديثه عن المنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى، يدعو الناس إلى طريق الفوز والنجاة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢) وبعد حديثه عن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، يبين طريق الفوز والنجاة والسعادة والبشرى فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣)

لقد حدد القرآن طريق الرشاد أمام أعين الناس. فبدت قيم الأشياء على حقيقتها دون تزييف أو خداع.

كم لعبت الدنيا بعقول الناس وفتنتهم بزينتها. فجاء القرآن الكريم ليكشف ما فيها من خير ويُبْطِلَ ما فيها من باطل.

---

(١) البقرة : ١٦.

(٢) البقرة : ٢١.

(٣) الزمر : ١٧، ١٨.

فحدد بذلك مَوْطن التعلقِ بها والحرصِ عليها.

فأوقف الذين خدعوا ببريقها وزينتها أمام حُطام لا يملك المتعلقُ به إلا أن يُقلب كفيه وهو يراها خاويةً على عروشها. أما الذين عرفوا موطن الخير فيها فإنَّهم سألوا الله أن يجعلها في أيديهم لا في قلوبهم، فأخضعوها لطاعة ربهم، وجعلوها مَمرَّهم إلى دار السلام فسعدوا بذكر الله، ونعموا بمعرفته وطاعته.

وهكذا تجد القرآن شفاءً لما في الصدور وهو يحسم هذه الحقيقة بهذا البيان الرباني الساطع: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

والإنسان وهو يفتح قلبه لعظة القرآن البالغة، يرى الدنيا وقد صارت حُطاماً.

ولا يكاد الأسى يُخيِّم على النفس - لذهابها وهي المحبوبة المرغوبة - حين يسمع من القرآن كلمة الحق في شأنها. لا يكاد الأسى يخيم على النفس. حتى يأتي النداء المبدوء باسم الله القادر على كل شئ - يدعو الناس إلى ما هو خيرٌ وأبقى، يدعوهم إلى دار السلام، ويبين لهم زادها وطريقها؛ لتنعم النفس ببقاء لا فناء بعده، ونعيم لا ينفد، ورضوان من الله أكبر.

---

(١) يونس : ٢٤.

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

وهكذا نجد القرآن الكريم يعالج أمراض النفوس ببيان الأسباب وذكر النتائج؛ ليتقي الإنسان كلَّ سبب ينالُ من قلبه حتى يظلَّ سليماً معافىً من الأمراض وينعم برضى الله.

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢)

وسلامة القلب في معرفة الله وحبِّه، والإخلاصِ له، وإخضاع كلِّ شئ لطاعته.

وإذا تعلق القلب بغير الله فسد أمره وساءَت عاقبته. وما ضَلَّ من ضل إلاَّ والقلب مشغول بغير الله. وما استقام وكفَّ عن المحرمات إلا من اهتدى بهدى الله وجعل هواه تبعاً لما جاء به رسولهُ ﷺ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٤)

---

(١) يونس : ٢٥، ٢٦.

(٢) الشعراء : ٨٨، ٨٩.

(٣) النازعات : ١٩.

(٤) يونس : ٥٧، ٥٨.

قال أبو سعيد الخُدري: فضْلُ الله: القرآن، ورحمتُه: أنْ جَعلنا من أهله. فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون. ذاك مَوْطِنُ عِزِّنا، وسبيلُ فوزنا. لقد أعزنا الله بالإسلام فمن ابتغى العز في غيره أذَلَّه الله.

أخي المسلم:

إن صدورَ الناس أوعيةُ أفكارهم وعقائدهم، وفيها تنطوي رغباتُهم وعزائمهم، وعلى أساسها يكون سلوكُهم وسعيُهم.

فإذا عالج القرآن ما في الصدور صح أمر الإنسان واستقام سعيُه. واطمأن الناس إليه، وأتمنوه على مصالحهم وهم لا يرون منه إلاَّ خيراً.

والقرآن الكريم لا يقف عنـــد علاج الصدور، بل يهدي دائماً للَّتي هي أقوم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾ [1]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ [2]

تلك هي القيمة التي يجب أن يجعلها المسلم دائماً أمام عينيه.

وليذر الدعوات الملحدة الباطلة التي تريد أن تتخذ من التلهي بالمادة والحديث عنها أصْناماً تُعْبَدُ من دون الله، ليحذر المسلمُ أن يصرفه عن قِيَمه وقيمته صَارِفٌ من لهو ومتاع ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾ [3]

---

(١) الإسراء : ٩.

(٢) يونس : ٥٧.

(٣) يونس : ٥٨.

يريد أصحابُ الفلسفة المادية أن يجعلوا المال صنماً يدعون الناس إلى عبادته والصراع من أجله ويريدون للقيم الإنسانية أن تُوأد، وأن تبقى ضراوة الحيوان تشتهي وتفتك.

إن الانتفاع بنعم الله التي أنعم بها على عباده لا يتم في بر ورحمة إلا بالخضوع لفضل الله ورحمته.

وفضلُه القرآنُ، ورحمتُه الإسلام.

وبغير الخضوع لفضله والاستجابة لرحمته تتحول نعم الله في أيدي الناس إلى نقم، ويُسخر المال في طريق الفساد والإفساد.

أقواتُ العالم تسلبُ ثم توضع في فوهات المدافع، يفعلها الظالم طلباً للسيطرة والغلبة، ويجد المظلوم نفسه مضطرّاً أن يُغالِب قوى الشر والفساد، ويَرُدَّ ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

إن الخضوع لفضل الله وحده هو الذي يجعل نعم الله في أيدي البشر برّاً، وعَدْلاً، وإيثاراً، ورحمة.

إن الذين يؤمنون بفضل الله يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إن الذين يؤمنون بفضل الله يعلمون أنهم مسئولون عن أمانات الله في أيديهم، وعما استرعاهم الله وأعطاهم، وهم يرددون قوله: ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [1]

(١) النمل : من الآية ٤٠.

إن الذين يؤمنون بفضل الله وحده يتواضعون ولا يتطاولون على عباد الله بنعمه وعطائه.

إنهم ينظرون الغد وما فيه من حساب وجزاء، فلم يشغلهم عاجل عن آجل، ولا تفتنُهم الزينة عن الباقيات الصالحات، وهم يرددون قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ (١)

إنهم سعداء بفضل الله وبرحمته، ولا يرون سعادتهم في غير الله أبداً ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢)

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

✿✿✿

(١) البقرة : ٢٨١.

(٢) يونس : ٥٨.